الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدهِ الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله -صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين-.

أما بعد:

فإن خير ما صُرفت فيه الأوقات وأُمضيت فيه الأنفاس ذِكر الله -عز وجل- الذي هو حياة القلوب وعِزُّها وفلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وهو طمأنينة القلوب كما قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[سورة الرعد].

وللذكر منافع عديدة لا تُحصى، وثمار كثيرة لا تستقصى، ويترتب عليه من الآثار الحميدة والعوائد الطيبة على عباد الله المؤمنين ما يكون سببًا لسعادتهم وفلاحهم في دنياهم وأُخراهم.

والواجب على عبد الله المسلم أن يحظى ذِكر الله -جل وعلا- باهتمامه، وعنايته، ورعايته، وأن يقتدي في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يذكر الله -تبارك وتعالى- في كل أحايينه كما ثبت بذلك الحديث عنه -صلوات الله وسلامه عليه-، كان ﷺ يذكر الله راكبًا وماشيًا وجالسًا ومضجعًا وفي كل أحواله -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا شأن أتباعه ﷺ الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

ولأهمية موضوع الذكر ولمكانته العُظمى كَتب فيه العلماء قديمًا وحديثًا كتاباتٍ نافعة، ومؤلفاتٍ مفيدة، منها: ما كتبه الإمام النسائي -رحمه الله- في مؤلف مفرد أسماه "**عمل اليوم والليلة**"، وكذلك تلميذه ابن السني -رحمه الله-، والإمام البيهقي في كتابه "**الدعاء الكبير**"، ثم بعدهم النووي -رحمه الله- في كتابه "**الأذكار**"، ومن بعده شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابة "**الكلم الطيِّب**"، وتلميذه ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "**الوابل الصيِّب**"، ثم من بعدهم الشوكاني -رحمه الله- في كتابه "**تحفة الذاكرين**"، إلى غير ذلك من المؤلفات المفيدة في هذا الباب.

ومن أحسن ما أُلِف في هذا الباب في عصرنا كتاب "**تحفة الأخيار**" للإمام عبد العزيز بن باز -رحمه الله- وغفر الله له.

الشاهد أن هذا الموضوع حظي باهتمام العلماء وعنايتهم، ومن جملة هذه الكتب النافعة والمؤلفات المفيدة في باب الذكر والدعاء وعمل المسلم في اليوم والليلة؛ مؤلَّفٌ قيِّم وكتابٌ نافع لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- سمَّاه "**الكلم الطيب**"، وهذا الكتاب من أنفع الكتب التي أُلِّفت في هذا الباب، وحوى جملةً من الأحاديث العظيمة، وكذلك جملةً من التبويبات النافعة فيما يتعلق بالذكر والدعاء، وعمل المسلم في يومه وليلته، وسيكون بإذن الله -

تبارك وتعالى– دراسة ومذاكرة لهذا الكتاب؛ كتاب "**الكلم الطيب**" لشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في كل يوم من هذا الشهر الفضيل شهر رمضان المبارك، شهر الذكر والدعاء، شهر تلاوة القرآن وإطعام الطعام، شهر الصلاة والصيام والقيام والذكر لله –تبارك وتعالى–.

ولعل من المناسب مما يُناسب التنبيه عليه بين يدي دراستنا لهذا الكتاب في هذا الموسم الفضيل، والشهر المبارك أن نعلم –معاشر الإخوة– أن تفاضل الناس في صيامهم أجرًا وثوابًا ومكانةً عند الله –تبارك وتعالى– إنما يكون بحسب ذكرهم لله –تبارك وتعالى– فيه، ولهذا يتفاوت الصائمون في صيامهم تفاوتاً عظيمًا بحسب ما يكون منهم في مدة الصيام ووقته من عناية ورعاية بذكر الله –تبارك وتعالى–؛ فمن كان ذكره لله أعظم في صيامه كان ثوابه أعظم، ومن كان ذكره لله –تبارك وتعالى– في صيامه أقل فإن ثوابه أقل، ومن شغل صيامه بقول الزور والإثم والجهل ونحو ذلك فهذا حرم نفسه من الخير؛ كما قال –عليه الصلاة والسلام–: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»، وجاء في حديثٍ آخر عنه –صلوات الله وسلامه عليه– أنه قال: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الجُوعُ وَالعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا التَّعَبُ وَالنَّصَبُ**».

ولهذا فالصائم مطالبٌ بحفظ صيامه، وخير ما يحفظ للمرء صيامه ذِكر الله –جل وعلا–، والعناية بذكر الله –تبارك وتعالى– وقت الصيام تلاوةً للقرآن وحمدًا وتهليلًا وتسبيحًا، وذكرًا لله –تبارك وتعالى–، وشغلًا للوقت بالعلم النافع ومسائله المفيدة؛ فإن الإشتغال بالعلم هو من الإشتغال بذكر الله –جلّ وعلا–، وهذه المسألة التي أشير إليها نبه عليها العلامة ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "**الوابل الصيّب**"، وهو كتابٌ عظيم النفع، كبير الفائدة بهذا الباب، وقد عدد فيه –رحمه الله– فوائد الذكر والدعاء وقال فيه: إن للذكر مائة فائدة، وذكر منها ما يزيد على السبعين فائدة.

في هذا الكتاب القيم نبَّه مؤلفه –رحمه الله– العلامة ابن القيم على هذه المسألة، وهي: أن حظَّ الصائمين من صيامهم بقدر ذكرهم لله –تبارك وتعالى– فيه، وأورد حديثًا ثابتًا عن النبي –عليه الصلاة والسلام– بشواهده ألَا وهو أنه ﷺ سُئل قيل له: أَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا**»، قيل: أَيُّ الحُجَّاجِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا**»، قيل: أَيُّ المصَلِّينَ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا**».

فلا يُذكر عملًا من الأعمال إلا ويُبين –عليه الصلاة والسلام– أن أعظم الناس أجرًا فيه أكثرهم لله ذكرًا فيه، وبناءً على هذا الحديث الثابت بشواهده قعَّد ابن القيم –رحمه الله– قاعدةً مفيدةً في هذا الباب ألَا وهي: أن أعظم الناس أجرًا في كل طاعة أكثرهم لله ذِكرًا فيها، فالناس يتفاوتون في طاعاتهم وعباداتهم من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ واعتمارٍ وغير ذلك، بحسب حظهم من ذكر الله –تبارك وتعالى– في تلك الطاعات.

ولهذا كان من المفيد للمسلم في كل طاعةٍ يقوم بها وكل عبادةٍ يأتي بها أن يُعنى فيها بذكر الله –عزّ وجل–، فذكر الله هو روح الطاعات ولبُّها وأساسها، ولأجله أُقيمت وشُرعت؛ إنما شُرعت الطاعات لإقامة ذكر الله –عزّ وجل–

، قال الله -عز وجل- في الصلاة: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [سورة طه]، وفي الحج قال ﷺ: «**إِنَّمَا شُرِعَ رَمْيُ الجِمَارِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-**»، وهكذا قُل في الصيام والصدقة، وكل طاعة يتقرب بها إلى الله -عزّ وجل- إنما شُرعت لإقامة ذِكر الله -جلّ وعلا-، فذِكر الله هو روح الطاعات وأساس العبادات.

والعبادات إنما قيامها يكون على ذكر الله -تبارك وتعالى-، ولأجل هذا تفاوت الناس تفاوتًا عظيمًا، وتباينوا تباينًا كبيرًا في حظوظهم من الأجور، ونصيبهم من الثواب بحسب ملازمتهم للذكر وعنايتهم به.

ولو تأملنا في الصيام لوجدنا أن المسلمين كلهم يشتركون في الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يشتركون في ذلك ولكن يتفاوتون في أجر الصيام وثوابه ومنزلته ومكانته عند الله -عزّ وجل- بحسب ذكرهم لله -تبارك وتعالى- فيه، مِنَ الصائمين من يُمضي جُل وقت صيامه بالنوم والكسل والفتور وضعف الهمة، ومِنَ الصائمين من يُمضي صيامه بأعمالٍ مُحرمة، وأمورٍ تُسخط الله -تبارك وتعالى-، يصوم عن الطعام والشراب والشهوة، ولا يصوم عن أمورٍ حرَّمها الله -تبارك وتعالى-، ونهى عباده عنها؛ كالغيبة والنميمة والسخرية إلى غير ذلك من الأعمال المنكرة، والأعمال المحرمة، فكل ذلك من الأمور التي تؤثر على الصيام تأثيرًا بالغًا.

ومِنَ الصائمين من يَمُنُّ الله -تبارك وتعالى- عليه، ويوفقه في صيامه؛ فيكتب له في صيامه عناية بالقرآن، ورعاية لذكر الله -تبارك وتعالى-، ومحافظةً على عبادة الله -جلّ وعلا- فيمضي منه الصيام على أتم حالٍ، وأكمل حالٍ، وأرفع منزلة، ولهذا كان متأكدًا على المسلم الصائم أن يحفظ صيامه، وأن يرعى صيامه بالعناية بهذا الأمر العظيم ذِكرِ الله -جلّ وعلا-، الذي هو خير ما صُرفت فيه الأوقات، وأمضى فيه المسلم أوقاته.

ولعلّ من التوفيق لنا جميعًا في هذا الشهر الفضيل أن نقرأ هذا الكتاب القيّم والمؤلَّف النافع لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-؛ رجاء أن يكون عوناً لنا بتوفيقٍ من الله -عز وجل- ومنٍّ ومعونة على المحافظة على ذكر الله -عزّ وجل-، والعناية به على الوجه الذي يرضيه عنا -سبحانه وتعالى-.

ونسأل الله -عز وجل- بأسمائه وصفاته أن يجعلنا له ذاكرين، له شاكرين، إليه مخبتين منيبين، ومنه -تبارك وتعالى- نستمد العون والتوفيق، وبسم الله نبدأ.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

(المتن)

يقول شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية -رحمه الله-:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صلِّ وسلم على أشرف خلقك محمد، ولله الحمد وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

(الشرح)

بدأ المصنف -رحمه الله- هذا الكتاب كتاب "**الكلم الطيب**" بالبسملة **بسم الله الرحمن الرحيم**، وهو بهذا مقتديًا بكتاب الله -عز وجل-، ومقتديًا بسنة رسوله المصطفى ﷺ، ويستحب للمسلم أن يبدأ بالبسملة كل أمرٍ ذي بال؛ فيكون في دخوله وخروجه وقراءته وكتابته وسائر أموره مبتدئًا ببسم الله -عز وجل-، مبتدئًا بالبسملة، طالباً بذلك عون الله -عزّ وجل- وتوفيقه وتسديده، فيما شرع وما قصد إليه من الأعمال الصالحة، والأمور النافعة الدينية والدنيوية.

ولهذا بدأ المصنف -رحمه الله- بالبسملة قال: **بسم الله الرحمن الرحيم**، والباء في **بسم الله** باء الاستعانة، والمعنى، أي: أبدأ مستعينًا بالله -تبارك وتعالى-، أبدأ كتابي هذا مستعينًا بالله؛ فالجار والمجرور في قوله: **بسم الله** متعلق بمحذوفٍ تقديره أكتب، بسم الله أكتب؛ لأنه كتب هذا الكتاب مبتدئًا له بالبسملة مستعيناً بالله -تبارك وتعالى- لجمع هذا المؤلف وتصنيف هذا الكتاب، فالباء في **بسم الله** للإستعانة، وقوله: **الله، الرحمن، الرحيم** هذه أسماء حسنى لله -تبارك وتعالى-، أما اسمه -تبارك وتعالى- الله؛ فهو دالٌّ على الألوهية والعبودية، كما قال ابن مسعودٍ -رضي الله عنه- قال: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، الله أي: المألوه المعبود، الذي يُخضع له ويُذل، ويُقصد بأنواع الطاعة وصنوف العبادة، ولا يصرف شيء منها لأحدٍ سواه، وابن مسعود -رضي الله عنه- فسَّر هذا الاسم المبارك بأمرين قال: ذو الألوهية والعبودية، أما الألوهية: فهي صفة الله -عزّ وجل-، وهي كماله سبحانه في أسمائه وصفاته التي استحق بها أن يؤله ويقصد وأن تصرف له أنواع العبادة، وأما العبودية فهي: فعل العبد التي يقتضيها اسم الله -تبارك وتعالى- **الله**؛ فهو يقتضي أن يُعبد، وأن يُعبد وحده، وألا يصرف شيء من العبادة لأحدٍ سواه.

والرحمن الرحيم هذان إسمان لله -جلّ وعلا- دالَّان على ثبوت صفة الرحمة لله -جلّ وعلا-، أما **الرحمن** فيدل على قيامها به سبحانه، وأما **الرحيم** فهو دالٌ على تعلقها بالمرحوم أو المرحومين كما قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب].

قال: **بسم الله الرحمن الرحيم** بدأ المصنف بالبسملة مستعينًا بالله -تبارك وتعالى-.

ثم قال: **اللهم صلِّ على أشرف خلقك محمد** ﷺ، فبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ وهي الدعاء له -صلوات الله وسلامه عليه-، فالصلاة من المؤمنين الدعاء، ومن الله -تبارك وتعالى- الثناء على عبده في الملأ الأعلى.

قال: **اللهم صلِّ على أشرف خلقك محمد**، وفي هذا أن محمدًا -صلوات الله وسلامه عليه- هو أشرف خلق الله، وأرفعهم مقامًا، وأعلاهم منزلة، وهو ﷺ سيد ولد آدم كما أخبر بذلك عن نفسه -صلوات الله وسلامه عليه-،

فهو أشرف العباد، وأكملهم طاعة وعبودية وذلًّا لله -تبارك وتعالى-، وهو عبد الله ورسوله وخليله ومصطفاه -صلوات الله وسلامه عليه-، وهو خاتم رسل الله به ختم الله -عزّ وجل- الرسالات، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [سورة الأحزاب:٤٠]، -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: **ولله الحمد وكفى**، ولله الحمد أي: لله -عزّ وجل- الثناء الحسن، والثناء العظيم على أسمائه -تبارك وتعالى- الحسنى، وصفاته العلا، وله -تبارك وتعالى- الثناء الحسن على نعمه، وآلائه التي لا تُعد ولا تُحصى، فهو -تبارك وتعالى- يُحمد على أسمائه وصفاته، ويُحمد -جل وعلا- على نعمه ومننه وآلائه، **ولله الحمد** أي: لله -عز وجل- الثناء مع الحب والتعظيم؛ لأن الحمد حقيقته: الثناء مع الحب، أما إذا كان ثناءً عاريًا من الحب؛ فيسمى مدحًا، ولا يسمى حمدًا، الحمد ثناءٌ مع الحب، ولهذا في حمدك لله -عزّ وجل- حب الله -عزّ وجل-، حبك لله -عزّ وجل-، والحمد ناشئٌ عن الحب والتعظيم لله -عزّ وجل- على أسمائه وصفاته، وعلى نعمه ومننه وآلائه.

قال: **ولله الحمد وكفى** أي: كفى بالحمد في هذا المقام العظيم، كفى به شرفًا ونبلًا ومنزلةً أن يحقق، أو أن يأتي العبد بالحمد لله -عزّ وجل-، وأن يكون مثنيًا على الله -عزّ وجل-، معترفًا بآلائه ونعمه ومننه، معترفًا بفضله، معترفًا بعظمته وجلاله وكماله، ولهذا يحمد الله -عزّ وجل-، وخير منازل العبد وأرفعها أن يكون من أهل الثناء على الله، من أهل الحمد والثناء والتعظيم لله -تبارك وتعالى-.

قال: **ولله الحمد وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى**، قيل: المراد بعباد الله أي: المؤمنين، أمة محمد -عليه الصلاة والسلام-، الذين ذكرهم الله -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [سورة فاطر:٣٢].

وقيل: المراد بعباده الذين اصطفى أي: الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [سورة الحج:٧٥].

قال: **وسلام على عباده الذين اصطفى، عباده** المراد بالعباد هنا: من قاموا بعبادة الله -تبارك وتعالى-، لا من هم عبيدٌ له، فرقٌ بين المعبَّد والعابد، فرقٌ بين عبودية الربوبية وعبودية الألوهية، فالمراد بالعباد هنا: من عبدوا الله عباد الرحمن، وليس المراد بالعباد المعبَّد المذلل كما في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [سورة مريم:٩٣]، الناس والخلق كلهم عبيد لله باعتبار أنه ربهم، وخالقهم ورازقهم وموجدهم، والمتصرف فيهم، فكلهم عبيده بهذا الإعتبار، والمؤمنون عبادٌ لله، أي: مطيعون له، قائمون بعبادته، ممتثلون لأمره -سبحانه وتعالى-، فالمراد بقوله: **عباده** هنا أي: أهل الطاعة وأهل الإيمان، والإقبال على الله -تبارك وتعالى-، سواءً كان المراد بهم خاصة الأنبياء والمرسلين، أو المراد بهم عموم عباد الله -تبارك وتعالى- المطيعين.

وقوله: **الذين اصطفى** أي: الذين اصطفاهم الله -تبارك وتعالى-، اصطفاهم أي: اختارهم واجتباهم -سبحانه وتعالى-، وإذا كان المراد بالعباد هنا الرسل؛ فيكون المعنى أي: الذين اصطفاهم بالرسالة كما قال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي

﴿مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [سورة الحج:٧٥]، وإن كان المراد بالعباد عموم العباد أهل الطاعة والإيمان فيكون المعنى: اصطفاهم بالتوفيق للعبادة، والتوفيق للطاعة، كما قال -عز وجل-: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة فاطر:٣٢]، اصطفيناهم بأن وفَّقهم -تبارك وتعالى- للقيام بطاعته، ولزوم عبادته، والبعد عمَّا نهى عنه وحرَّم -تبارك وتعالى-.

قال: **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له** وهذا فيه الشهادة لله -تبارك وتعالى- بالوحدانية، ولا بُدَّ في الشهادة من أن تكون عن علمٍ بالمشهود به، كما قال -عز وجل-: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف:٨٦]، وكما قال -تبارك وتعالي-: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [سورة يوسف: ٨١]، فالشهادة لا بُدَّ فيها من علمٍ بالمشهود به؛ حتى تكون شهادة صحيحة معتبرة، **أشهد أن لا إله إلا الله** أي: أشهد أن الله -تبارك وتعالى- هو المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه.

وقوله: **لا إله إلا الله** هذه كلمة التوحيد الذي لا قيام للدين إلا عليها، وهي مشتملة على ركنين اثنين؛ النفي والإثبات، النفي العام في أولها، والإثبات الخاص في آخرها؛ نفي العبودية عن كل من سوى الله -عز وجل-، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده، خضوعًا وتذللًا، رغبًا ورهبًا، طاعةً وتعبدًا، كل ذلك لله -عز وجل-، وليس لأحدٍ سواه فيه شركة، وهذا هو معنى: **لا إله إلا الله** نفيٌ وإثبات، لا إله إلا الله، ولا يُقبل من عبد التوحيد إلا بهذين الركنين: النفي والإثبات، تنفي العبودية عن كل من سوى الله، وتُثبتها بكل معانيها لله -تبارك وتعالى- وحده، ولهذا قال عقبها: **وحده لا شريك له**.

وقوله: **وحده لا شريك له** فيه تأكيدٌ للتوحيد الذي دلت عليه كلمة التوحيد **لا إله إلا الله**، وقد عرفنا أن لا إله إلا الله قامت على ركنين هما: النفي والإثبات، ولما كان هذا المقام أشرف مقام أكده بقوله: **وحده لا شريك له**؛ فإن في قوله: **وحده** تأكيدٌ للإثبات، وقوله: **لا شريك له** تأكيدٌ للنفي، وعليهما قامت كلمة التوحيد **لا إله إلا الله**، ومعنى هذه الكلمة: أن نُخلص العبادة لله -تبارك وتعالى-، أن نعبد الله -عز وجل- وحده، وألَّا نعبد أحدًا سواه، أن نُخلص الدين لله -تبارك وتعالى-؛ هذا هو معناها، كما نقول يوميًا عقب كل صلاة ودُبر كل صلاة: **لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**، فالمسلم كل يومٍ عقب كل صلاة يُهلل -أي: يذكر كلمة التوحيد لا إله إلا الله مضمومًا إليها ما يبين معناها ويوضح دلالتها، فلا إله إلا الله معناها: ألَّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين، كما نقول ذلك في تهليلنا دبر كل صلاة.

ثم قال -رحمه الله-: **وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله** ﷺ، فهذا فيه الشهادة لمحمد ﷺ بالعبودية والرسالة، أما العبودية فهو أكمل خلق الله عبادةً لله؛ فإنه -صلوات الله وسلامه عليه- كمَّل مقام العبودية، وتمَّم مقام الطاعة

فكان أكمل الناس عبادة، ولهذا صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ وَأَتْقَاكُمْ أَنَا**»، فهو اتقى الناس لله، وأعلم الناس بالله -تبارك وتعالى-، وأكمل الناس قيامًا بطاعة الله -عز وجل-، ولهذا كان ﷺ أسوةً وقدوةً لعباد الله المتقين، ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [سورة الأحزاب:٢١]، فهو -عليه الصلاة والسلام- أسوة؛ لأنه كمَّل مقام العبادة، وتمَّم مقام الطاعة، فلا يشاء المسلم بابًا من أبواب البر وسبيلًا من سبل الطاعة إلا ويجد في النبي ﷺ الأسوة والإمامة في ذلك كله؛ لأنه كمَّل مقام العبادة لله، وليس في عباد الله من هو أعبد لله منه —صلوات الله وسلامه عليه-؛ فهو عبد الله، ورسوله ﷺ، وهذا فيه الشهادة له بالرسالة، أنه مُرسل من عند الله، ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى[٣]إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [سورة النجم:٤]، ومن المعلوم أن مهمة الرسول إبلاغ كلام مرسله، ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ [سورة المائدة:٩٩]، فنحن نشهد أنه ﷺ رسول الله، بلَّغ البلاغ المبين، وأدَّى ما أمره الله -تبارك وتعالى- بإبلاغه على التمام والكمال، وما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه، وقد قال الله تعالى في القران: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [سورة النساء:٦٤]، وهذه الآية تدل على أن الشهادة لمحمدٍ ﷺ بالرسالة تقتضي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وألَّا يُعبد الله إلا بما شرع، وهذا هو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله؛ أن نطيعه ﷺ في أوامره، وأن ننتهي عن نواهيه، وأن نصدقه ﷺ في أخباره؛ لأنه -صلوات الله وسلامه عليه- جاء بأمورٍ ثلاثة: جاء بأوامر، وجاء بنواهي، وجاء بأخبار، فإذا قال المسلم: أشهد أن محمدًا رسول الله؛ فإنه يجب عليه أن يُطيعه فيما أمر، وأن ينتهي عما نهى عنه وزجر، وأن يصدقه ﷺ فيما أخبر.

وفي قولنا: **أشهد أن محمدًا عبده ورسوله**، توسطٌ واعتدال بين أهل الغلو والجفاء، وإلى هذا التوسط أرشد ﷺ بقوله: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»؛ فأرشد -عليه الصلاة والسلام- إلى التوسط والاعتدال، التوسط بين الغلاة والجفاة، بين أهل التفريط والإفراط، بين أهل الزيادة والنقصان، والله تعالى يقول عن أمة محمدٍ -عليه الصلاة والسلام-: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [سورة البقرة:١٤٣]، أي: شهودًا عدولًا، لا غلو ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط. ومن يشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله محققًا معنى هذه الشهادة؛ فإنه بذلك يكون بذلك محققًا معنى الوسطية والإعتدال، فالشهادة بأنه عبد الله ورسوله فيها التوسط والإعتدال بين أهل الغلو وأهل الجفاء، فمن شهد أنه عبد الله؛ فالعبد لا يعبد، ولا يعطى شيئًا من خصائص الرب -سبحانه وتعالى-، من شهد أنه عبدٌ لله -تبارك وتعالى- لا يعطيه شيئًا من خصائصِ الله، خصائصُ الله لله -جل وعلا- لا تُعطى لا لملك مقرَّب ولا لنبي مرسل، فهو عبد لله -عز وجل-، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [سورة الكهف:١١٠]، فهو -عليه الصلاة والسلام- بشر، ليس فيه من خصائص الإله أي شيء، خصائصُ الله لله -عز وجل-، خصائص الله في ربوبيته، خصائص الله في ألوهيته، خصائص الله في أسمائه وصفاته، هذه كلها له -سبحانه وتعالى-، ولهذا أنكر -عليه الصلاة والسلام- من أعطاه شيئاً من خصائص

الله، جاء عنه ﷺ الإنكار على امرأةٍ سمعها تقول: وَفِينَا رسول الله يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فغضب –عليه الصلاة والسلام– وقال: «**لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ**»، ولما سمع رجلًا يقول: ما شاء الله وشئت، مخاطبًا النبي –عليه الصلاة والسلام–، غضب وقال: «**أَجَعَلْتَنِي لِلهِ عِدْلًا**»، وفي رواية: «**أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا! قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»، وقال –عليه الصلاة والسلام– في الحديث الصحيح: «**مَا أُحِبُّ أَنْ تُنْزِلُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ إِيَّاهَا**»، ولما قال أحد الأسرى الذين جيء بهم –عليه الصلاة والسلام– قال الأسير: إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد، قال –عليه الصلاة والسلام–: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**» فهو –عليه الصلاة والسلام– عبدٌ لا يُعبد، العبادة لله –جل وعلا–، فإذًا في قولنا: عبد الله خروج من الغلو في حقه –صلوات الله وسلامه عليه–، الغلو باطل، نهى –عليه الصلاة والسلام– عن الغلو في الدين، وأخبر أنه أهلك من كان قبلنا، قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»، فقولنا: عبد الله هذا فيه خروج من الغلو، والعبد لا يعبد، وقولنا: رسول الله خروج من الجفاء، فهو رسول مرسل من الله –عز وجل–، يجب أن نعرف مكانته، وأن نعرف منزلته، وأن نعرف فضله، وأن نعرف شرفه –صلوات الله وسلامه عليه–، وأن نجعله قدوة لنا نأتسي به، ونقتدي به، ونمتثل أوامره –عليه الصلاة والسلام–، وأن ننتهي عن نواهيه، ففي قولنا: رسول الله خروج من الجفاء.

قال: **وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله** ﷺ، ثم شرع بعد ذلك في ذكر الآيات من كتاب الله –عز وجل– المبينة لمكانة الذكر وعظيم منزلته.

(المتن)

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[٧٠]يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [سورة الأحزاب:٧٠ – ٧١].

(الشرح)

قال: قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[٧٠]يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾**، بدأ المصنف –رحمه الله– بهذه الآية العظيمة التي فيها أمر أهل الإيمان بالقول السديد بعد أمرهم بتقوى الله –عز وجل– قال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾**، خاطبهم بوصف الإيمان الذي يقتضي طاعة الله –عز وجل–، وامتثال أوامره، والانتهاء عن نواهيه، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾**، فالإيمان يتطلب من المؤمن بأن يكون متقيًا لله، عاملًا بطاعة الله، محافظًا على أقواله وأعماله فيما يقربه من الله –تبارك وتعالى–، **﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾** والتقوى الأمر بها أمرٌ بالدين كله؛ لأن تقوى الله –عز وجل– هي: أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من سخط الله وعقابه وقاية تقيك، وذلك بفعل المأمور وترك المحظور، ولهذا فإن من أحسن ما عُرِّفت به التقوى قول طلق بن حبيب –رحمه الله–: **تقوى الله العمل بطاعة الله، على نورٍ من الله؛ رجاء ثواب الله، وترك معصية الله، على نور من الله؛ خيفة عذاب الله**، فتقوى الله –عز وجل– عملٌ بالطاعة، وترك للمعصية على نور

من الله، أي: على علم وبيّنة ودرايةٍ بدين الله، ولهذا المتقي هو من يعمل المأمور فيعمل به، ويعلم المنهيَّ عنه فيجتنبه، هذا هو حقيقة التقوى: علمٌ بالمأمورات مع فعلها والعناية بها، وعلمٌ بالمنهيات مع اجتنابها والحذر من الوقوع فيها، وهو في كل ذلك راغبٌ راهب، يرجو ويخاف، يرجو رحمة الله -تبارك وتعالى-، ويخاف عذابه.

قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، قيل: المراد بالقول السديد: كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وهذا تفسيرٌ لهذه الكلمة بأشرف وأعظم ما يدخل فيها، فإن أشرف القول السديد وأعظمه: لا إله إلا الله؛ لأن لا إله إلا الله هي أعظم الكلمات وأجلُّها على الإطلاق، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**وخَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ**»، فـ لا إله إلا الله هي أفضل القول السديد وأعظمه. ولهذا بعض المفسرين فسَّر القول السديد هنا بـ لا إله إلا الله تفسيرًا لهذه اللفظة بذكر أشرف ما يدخل تحتها وهو كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وقيل: المراد بالقول السديد عموم الذكر لله -تبارك وتعالى-؛ فيشمل التهليل، والتسبيح، والحمد... وغير ذلك من الأذكار المأمور بها، وقيل: القول السديد الدعاء، والعناية به، وكل ذلك من القول السديد المأمور به، فـ لا إله إلا الله هي أشرف القول السديد وأعظمه، وذكر الله -تبارك وتعالى- هو خير ما تُشغل به الأوقات، وتُمضى به الأنفاس، والدعاء منزلته ومكانته عند الله عظيمة، وهذا كله من القول السديد، وليس القول السديد محصورًا في هذا، شغل الأوقات بمدارسة العلم ومذاكرة مسائله هذا من القول السديد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا من القول السديد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[٧٠]يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، لاحِظ ملاحظة مهمة هنا أن صلاح العمل وزكائه مترتب على صلاح القول؛ فإذا صلح قول الإنسان صلح عمله، ولهذا جاء في حديثٍ صحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ**»، وتأمل جيدًا قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ**» أي: باللسان. «**فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**».

فالأعمال صلاحها منبنٍ على صلاح الأقوال؛ فإذا صلحت الأقوال صلحت الأعمال، ولهذا رُتب صلاح العمل على سداد القول، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[٧٠]يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾.

وكثير من الناس لا يبالي بمنطقه، لا يبالي بكلامه، بل لا يعد كلامه من عمله الذي سيحاسبه الله -تبارك وتعالى- عليه يوم القيامة، وقد قال النبي -عليه الصلاة والسلام- لمعاذ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ** -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- **إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»، فاللسان شأنه خطير.

وكان بعض الصحابة يمسك بلسان نفسه ويقول: والله ليس هناك شيء أحوج إلى طولِ سجني من اللسان، فاللسان يحتاج إلى رعاية وصيانة، وأن يحفظ الإنسان لسانه بالقول السديد والكلام المفيد الذي يُكتب له ولا يكتب عليه، فإذا صان لسانه وصلح لسانه صلحت أعماله بإذن الله -تبارك وتعالى-، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[٧٠]يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

لعلنا نكتفي بهذا القدر سائلين الله –تبارك وتعالى– التوفيق والسداد والهداية والرشاد والإعانة على كل خير، وأن يُعيننا على قيام هذا الشهر وصيامه، وأن يستعملنا فيه بطاعته وما يقرب إليه، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.